[٣٩٥ – عن كعب بن مالك ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي؛ صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: (أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك)].

اشتمل حديث كعب بن مالك – رضي الله عنه وأرضاه –، وهو أحد الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك، وأنزل الله ﷻ فيهم ما أنزل، وابتُلوا بما ابتلوا به – رضي الله عنهم وأرضاهم –، وتاب الله عليهم وقَبِل توبتهم ﷻ، لما نزلت توبة كعب، وأشرف الرجل على سلع فنادى: أبشر يا كعب! فخرج ﷺ إلى رسول الله ﷺ. وقصته في الصحيح، وهي من أعظم القصص عبرة وعظة للمسلم، وما من أحد يتأمل قصة الثلاثة الذين خلفوا، بل ما من مسلم يتأمل قصص الصحابة – رضوان الله عليهم – كلها إلا وجد فيها من العبر والآيات والعظات الشيء الكثير. جعلنا الله وإياكم من المنتفعين بهم، والمؤتسين بهم، والمقتفين لآثارهم، المحشورين في زمرتهم – رضي الله عنهم وأرضاهم –. كانوا قومًا على الصدق والأمانة، وكانوا أبعد ما يكونون عن الخيانة والغش والكذب، ورفع الله أقدارهم بالصدق، فهذا الصحابي ومن معه من الثلاثة الذين خلفوا: صدقوا مع الله فصدق الله معهم، وأبوا أن يكذبوا، وأبوا أن يغيروا، وأبوا أن يبدلوا، ووقفوا بين يدي رسول الله ﷺ. وعلم كعب – كما جاءت الرواية في الصحيح – أنه لو كذب على رسول الله ﷺ وجاءه بالأيمان المغلظة قال: "ما كان ينفعني ذلك بشيء، ولعلمت أن الله سيفضحني" إيمان وتصديق! وهو يرى بعينه، ويسمع بأذنه المنافقين وهم يقفون بين يدي رسول الله ﷺ، ويحلفون له الأيمان الفاجرة أنهم ضعفاء، وأنهم معذورون، وأنهم.. وأنهم..! فقَبِل منهم النبي ﷺ، ولكن هذا الصحابي أبى إلا أن يصدق، وما ضر الصدق صاحبه أبدًا، لم يضر الصدق صاحبه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإذا رأى ضررًا في صدقه: فليعلم أنه إذا كذب ليبتلينه الله بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، ومن هنا قال بعض السلف – رحمهم الله –: "يا بني، اصدق حيث تظن أن الصدق يضرك؛ فإنه لا يضرك بل ينفعك. ولا تكذب إذا ظننت أن الكذب ينفعك؛ فإنه سيضرك".

فصدق هذا الصحابي – رضي الله عنه وأرضاه – مع ربه، وجاء إلى رسول الله ﷺ وقعد بين يديه قعود الصادق المراقب لربه ﷻ، فسأله عن تخلفه، وهل له من عذر؟ فصدق في قوله أنه ما له من عذر، وما كان من رسول الله ﷺ إلا أن صرفه حتى يقضي الله في أمره. والقصة طويلة ومشهورة، فالشاهد من هذا: أن الله – تعالى – أبى إلا أن ينجيه بصدقه، وأن يريه حسن العاقبة في استقامة قوله وقلبه، فنزلت التوبة "توبة الله ﷻ" من فوق سبع سماوات على هذا الصحابي ومن صدق معه، وبقيت توبته قرآنًا تتلى إلى يوم القيامة؛ لأنه صدق مع الله فصدق الله معه، وهذه عاقبة أهل الصدق: أن الله يبوئهم مبوأ الصدق في الدنيا قبل الآخرة. فلما نزلت توبته صعد الرجل على الجبل، وكان كعب ﷺ قد بلغ به الأمر مبلغه: ضاقت به الأرض بما رحبت، وضاقت به نفسه التي بين جنبيه، وأصبح في ضيقه وهمه وغمه وكربه، ولكن الله ﷻ زكاهم من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ لما ظنوا أيقنوا، ومن هنا يقول بعض العلماء: الفرج لا يأتي إلا عند اليقين، وكل من صبر في الشدائد والفتن والأهوال سيأتي في آخر مرحلة يزلزل فيها، ويرى أنه قد بلغ الروح الحلقوم، ويزعزع: فيأبى إلا أن يثبت ويصدق مع ربه، وإذا بالفرج يأتيه من حيث لا يحتسب لما أيقن. ومن هنا: كل من أسلم واستسلم لله جاء الله له بالفرج ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ فجاء الفرج من الله ﷻ. فهم لما صدقوا وبلغوا هذا المبلغ بعد أربعين يومًا وهم في الشدة والكرب، وصور الله البلاء الذي بلغوه بالحس والمعنى، والظاهر والباطن، وهذا من أبلغ ما يكون في تصوير حال الإنسان ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ هذا الضيق الظاهر ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ من الناس من تضيق عليه الأرض بما رحبت لكن ما تضيق عليه نفسه، فتجده فقيرًا والناس تحتقره وتذله، ولكنه من أعز الناس، وأشرف الناس، وأكثرهم طمأنينة وقوة وشكيمة، ولا يزيده إعراض الناس إلا ثباتًا، ولا يزيده تضييق الناس إلا سعة؛ لأن قلبه مليء بالله ﷻ. لكن هؤلاء عندهم ذنب واستشعار بالخطأ، فاجتمع عليهم ضيق الظاهر: فالناس لا تكلمهم، حتى الزوجة أُمر

باعتزالها، وخرج إلى جاره فناداه فلم يكلمه! فضاقت عليه الأرض بما رحبت بالناس، وضاقت عليهم أنفسهم، لكن ما خاب رجاؤهم في الله ﷻ، ولا خاب رجاؤهم في أرحم الراحمين من هو أرحم بهم من نفسهم التي بين جنبيهم، أرحم بالعبد من نفسه التي بين جنبيه! ما خاب ظنه فنزلت التوبة من بعد صلاة الفجر على رسول الله ﷺ، وتلا الآيات – صلوات الله وسلامه عليه – على الصحابة من بعد صلاة الفجر، في الوقت الذي كان ﷺ قد وقف بين يدي النبي ﷺ يعلن صدقه، ويقول الحق ولا يقول إلا الصدق: فصدق الله معه ﷻ، وشمله برحمته، فصعد الرجل على سلع وقال: "أبشر كعب! لقد تاب الله عليك" فبلغه الخبر، ولم يجد ما يلبس حتى استعار ثوبًا من جاره! وانطلق إلى رسول الله ﷺ؛ لكي يسمع البشرى، لكي يسمع بأذنه ويرى بعينه عواقب صدقه، ولكي يسمع كلام الله وهو يزكيه من فوق سبع سماوات، ويبشره برحمته وعفوه ولطفه – سبحانه – وهو أرحم الراحمين، فجاء وجلس بين يدي النبي ﷺ، فقال له: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك!). نعم، هذا اليوم السعيد وهو يجلس بين يدي النبي ﷺ، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة – بأبي وأمي – ما جلسه ﷺ إلا بفضل الله ثم بالصدق، ومن هنا: يجد المسلم هذه العبرة العظيمة حينما جعل الله العاقبة لكعب، وكان من فرحه بتوبة الله عليه: أنه قال لرسول الله ﷺ هذه الكلمات الطيبات: يا رسول الله، إن من شكري لله ﷻ وحمدي لله: أن أنخلع من مالي صدقة لله **[إن من توبة الله علي]** يعني: أن أشكره على توبته علي **[أن أنخلع من مالي]** وقفة تتأمل فيها هذه الأمة التي اصطفاها الله ﷻ لنبيه – عليه الصلاة والسلام – حينما كانت الدنيا حقيرة لا تساوي شيئًا! من شدة فرحه بتوبة الله عليه قال: أريد أن أخرج من الدنيا كلها لله ولرسوله ﷺ! فرح بالتوبة، وهذا يدل على كمال الإيمان وكمال التوحيد، فهم الأمة التي لم يجعل الله الدنيا أكبر همها، ولا مبلغ علمها، ولا غاية رغبتها وسؤلها. **[يا رسول الله، إن من توبة الله علي أن أنخلع من مالي]** يخلعه كما يخلع الثوب! لا مزرعة، ولا أرض، ولا عقار، ولا مال! والذي شغله عن رسول الله ﷺ ما شغله من الاشتغال بالمال، ومن هنا: جعل من توبته لله ﷻ، ومن فرحه بتوبة الله عليه: أن يشكر نعمة الله ﷻ عليه بأن يخرج من ماله، فانظر كيف كانت الآخرة غايتهم ورغبتهم: فقد تاب الله عليه، ومع هذا أراد أن

يشكر الله على هذه التوبة، فأراد أن يخرج من هذه الدنيا كلها! رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل أعالي الفردوس مسكنهم ومثواهم، وجزاهم عن نبينا وعن أمة محمد ﷺ خير ما جزى صحبًا عن صحبته – رضي الله عنهم وأرضاهم –، فهم القوم – ونِعم القوم – الذين زكاهم الله من فوق سبع سماوات. ألا شاهت وجوه من انتقصهم، وشاهت وجوه من ذمهم، فنسأل الله بعزته وجلاله أن يكبته في الدنيا والآخرة. فهؤلاء الصحب، هذه النماذج الكريمة، وهذه الآيات العظيمة التي جعلها الله ﷻ في مواقف الصحابة ينبغي للمسلم أن يتأملها. فلما انخلع فجعل لله ﷻ، جعل العلماء هذه العبارة – وهو مذهب طائفة من أهل العلم – بمثابة النذر، وقال بعض العلماء: إنه مستشير لرسول الله ﷺ وسائل له. والأول أقوى، فبين أنه قد نذر ماله كله لله ﷻ، فقال – عليه الصلاة والسلام –: **[(أمسك عليك بعض مالك)]** رحمة من الله ﷻ ولطف؛ لأن الإنسان لا بد له من مال يصون به وجهه عن الناس، ولا بد من مال يصلح به أمره بإذن الله ﷻ، فالأموال قيام للناس في مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، وأعظم ما تكون الشدة: حينما يحتاج الإنسان إلى الناس. ركب قوم في سفينة ومعهم إبراهيم بن أدهم "العابد" – رحمه الله –، فأصاب الناس الرعب حينما ماجت السفينة وجاءتهم أمواج عاتية، ثم نجى الله ﷻ فصرف عنهم الشدة والبلاء، فقال بعض الركاب لإبراهيم: يا إبراهيم، ألم تر إلى هذه الشدة؟! أي: ألا ترى هذا الهول الذي رأيناه والشدة؟! فقال – رحمه الله –: "إنما الشدة الحاجة إلى الناس" الشدة: أن يريق الإنسان ماء وجهه، ويحتاج وتضيق عليه الدنيا، فيأتي إلى أحد يعرض عليه. من الناس من يتمنى الموت ولا يسأل، ومنهم من يتمنى أن تُضرب رقبته ولا يعرض كرامته بأن يسأل أحدًا حاجته من شدة الأنفة! فهذه هي الشدة، فالمال يصون الله به الإنسان عن هذا – بإذنه ﷻ –، فقال النبي ﷺ: **[(أمسك عليك بعض مالك)]** ثم قال: **[(بعض مالك)]** لم يقل: "كل مالك"؛ لأن الوسطية أن يكون عند الإنسان مال، ولكن لا يكون هو غاية الرغبة وغاية السؤل، وإنما يكون معونة له على مصالح الدنيا، ومعونة له – أيضًا – على مصالح الآخرة.

استدل بهذا الحديث طائفة من العلماء على أن من نذر أن يتصدق بجميع ماله: أنه يخرج بعض المال وليس كل المال، واختار طائفة من السلف – رحمهم الله – أنه يخرج الثلث؛ لأن النبي ﷺ قال: (الثلث، والثلث كثير!). واستشكل بعض العلماء في هذا الحديث: أن النبي ﷺ قبل من أبي بكر ﷺ أن يخرج من ماله، وقال له: (ماذا أبقيت لأهلك؟) فقال: أبقيت لهم حب الله ورسوله. رضي الله عنه وأرضاه، وكعب لم يقبل النبي ﷺ منه أن يخرج من ماله، وقد أجيب بعدة أجوبة، منها: أن يقين أبي بكر أعظم من يقين كعب. وهذا صحيح؛ لأن أبا بكر ﷺ سبق الصحابة – رضوان الله عليهم –، ومن هنا: سبقهم بشيء وقر في القلب وهو اليقين، وكان أبو بكر ﷺ من أكمل الأمة يقينًا بعد النبي ﷺ. تأمل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ وهم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾. ولكن أبا بكر مع النبي ﷺ ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. موسى – عليه السلام –: ﴿إِنَّ مَعِيَ ﴾ لأنهم خافوا من الناس وأخذوا بالظاهر، وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ فحينئذ: كانوا أضعف يقينًا وكان أبو بكر أكمل يقينًا، فلما كان يقين أبي بكر وهو في الغار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ولم يقل له: "إن الله معي وحدي"، ولكن كان أبوبكر ﷺ في يقينه وصدقه ﷺ في المنزلة العظيمة. ومن أهل العلم من قال: إن كعبًا ﷺ خرج من ماله في شدة الفرح، فقال: **[إن من توبة الله علي أن أنخلع من مالي]** فهو في شدة الفرح بالتوبة، وأبا بكر ﷺ خرج وهو في حال الشدة والضيق، حال يدعو إلى إمساك المال – وهو حال أبي بكر –، ويدعو إلى أن الإنسان يحافظ على كل شيء؛ لأنه في شدة وكرب ومواجهة! وكعب ﷺ في حال فرح وسرور، وكان حال أبي بكر ﷺ في اليقين من هذا الوجه – أيضًا – أكمل وأظهر – رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين –. وأيًّا ما كان، فقد استدل به من ذكرنا من السلف أن من نوى أن يخرج من ماله كله: أنه لا يخرج من جميع المال، وهذا ظاهر من قوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(أمسك عليك بعض مالك)]**.